الدكتور إلياس فرح



مناقشات حول المسألة القومية



منشورات الطليعة

1995

مناقشات حول المسألة القومية

الدكتور إلياس فرح

بغداد ١٩٧٧

- ١ -

إن «القضية القومية» التي تجمع أبناء الأمة في النضال، في المحنة وفي الانتصارات، في السرّاء والضرّاء، إنما تعبّر عن نفسها في منظومات أفكار وفي شكل تنظيمات وخطط، تشدهم إلى ما هو جوهري وأساسي بالرغم من اختلاف المواقع والاجتهادات. إن هذه «الوحدة الجدلية»، الوحدة الحية الغنية التي تتجاوز من خلالها اختلاف المنظور الايديولوجي، والأطر التنظيمية المتعددة، والبرامج والخطط ذات المدى القريب، وحتى البعيد أحياناً...، هي ما نطلق عليه عادة اسم «المسألة القومية».

فعلى الصعيد «الموضوعي» تعني المسألة القومية «جملة الحقائق والتناقضات الأساسية التي تميّز الواقع، اجتماعياً وحضارياً، ووطنياً، وقومياً، في مرحلة تاريخية محددة».

كما أنها على الصعيد «الذاتي» تعني «وعي الأمة، ممثلة بطلائعها وجماهيرها المناضلة، لتلك التناقضات الموضوعية، وتحديدها الأهداف الأساسية التي يتطلبها النضال من أجل حل هذه التناقضات».

وبالرغم من أن المسألة القومية، بوجه عام، تشكل ظاهرة معبّرة عن أحد المحركات الكبرى والأشد أهمية في عالمنا المعاصر، فإن ثمة نقصاً كبيراً في معالجتها وفي التصدي لها بدراسات علمية مستوعبة معطيات عالمنا الراهن، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، ما يزال قائماً لدى علماء الاجتماع، ولدى المفكرين الثوريين بوجه عام.

فالبحوث التي قام بها المؤرخون والفلاسفة وعلماء النفس والمهتمون بدراسة المجتمع

حول «القومية» قبل الحرب العالمية الثانية، كانت في معظمها وصفية، وذات طابع أخلاقي. فالحاجة إلى الدراسات المقارنة حول انبثاق الحركات القومية، ودور العامل القومي في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في مختلف القارات والبلدان والأنظمة والشعوب، ما تزال قائمة وملحة. بل وتزداد مع احداث هذا القرن، ضغطاً وقوة.

ولا شك أن للمسألة القومية موقعاً خاصاً في الحياة العربية المعاصرة، وأن الاهتمام بمثل هذه الدراسات إنما يعبّر عن وعي هذه الحقيقة والحاجة إلى تجاوز المفاهيم التقليدية التي سبق لها أن تكوّنت ضمن سياق تاريخي تجاوزه التطور الموضوعي، حول المسألة القومية، بوجه عام، وحول المسألة الخاصة بقوميتنا العربية، من جهة أخرى.

ولا يمكن أن تدعي الأفكار التي سوف أطرحها أكثر من كونها مساهمة متواضعة على طريق سد الحاجة التي نوهنا إليها، إلى «نظرة علمية شاملة» مستوعبة الحقائق الجديدة في عالم اليوم.

- ٢ -

إن «القضية المنهجية» تحتل المكانة الرئيسية في كل محاولة للبحث العلمي في المسألة القومية. فدفع هذه البحوث في اتجاه يحقق لها تطوراً حاسماً على الصعيدين العلمي والثوري، أمر يتطلب النزول من سماء النظريات ومن مستوى البحث العام المحيط بكل شيء، لوضع اليد على الأحداث وما تنطوي عليه من خصوصية نوعية، وعلى ما تنطوي عليه النظريات ذاتها من جوانب قابلة للتحقيق، والاعتماد على سلسلة من العلاقات القابلة للملاحظة والقياس. فقد آن الأوان لالتزام موقف منهجي يؤكد شعورنا بالمسؤولية. فالفرق شاسع ونوعي بين أن نتناول قضية بالبحث المجرد، وبين أن نتناولها باعتبارها تشكل سؤالاً مصيرياً يحتاج إلى جواب مصيري.

وإن ما نشاهده اليوم من تصاعد المد الرجعي في الوطن العربي لا يفسَّر بعوامل خارجية بحت، ولا بد أن نعترف بأنه في الوقت الذي اكتسبت فيه الرجعية، بحكم تنبهها لمصالحها وخوفها على مصيرها، حساً واقعياً وقدرة على استيعاب الأخطار التي تهددها، ما يزال اليسار العربي يعاني، على صعيدي الفكر والممارسة، من فجوة كبرى بين الواقع والطموح. وكثيراً ما تحجب تحليلاته النظرية المجردة الرؤية الواضحة إلى المجتمع، وتحوّل «الثورة» في الوطن العربي من مشروع متميز بقابليته الحاسمة للتحقيق والانتصار المتصاعد والثابت، إلى أرجوحة للحلم والاندفاع والحماسة والتفاؤل، لا تستند إلى أعمدة ثابتة وطيدة بعد.

وإذا كان جانب من هذا الخلل والنقص في الفكر التقدمي يعتبر طبيعياً لأنه من طبيعة المرحلة العربية والتطور العربي، إلّا أن جانباً منه يرجع إلى تأثيرات وعوامل ضياع ينبغي التنبّه لها، وفي مقدمتها المسألة المنهجية، وهي مسألة قابلة للمعالجة، لأنها في حقيقتها مسألة تطور حضاري، ومسألة تربوية.

لقد انتقل الوعي العربي إلى المسألة القومية من مرحلة الطفولة، حيث العودة الانفعالية إلى التراث والعودة الآلية إلى تكرار للماضي، ووعي «الآخر» وهو الغرب المستعمر سلبياً، أي من «المرحلة العاطفية اللاعقلانية» التي طبعت ولادة مرحلة النهضة العربية المعاصرة، إلى «مرحلة التقليد الآلي للغرب» وتبني مقولات الحضارة الغربية والفكر الغربي، كطريق للتطور والنهضة. وكان منهج الفكر في كلتا المرحلتين شبيهاً بمنطق التطور البيولوجي والسيكولوجي الذي يطبع مرحلتي الطفولة الأولى والطفولة الثانية حيث تكون عمليتا «التمثل» و «التطابق» متراصفتين لا تحكمهما علاقة جدلية تجعل قانون التكيّف والتلاؤم قانون اكتشاف وابداع في الوقت نفسه، إلى جانب كونه قانون بقاء وضرورة.

لذلك كان لا بد أن تأتي مرحلة جديدة أعلى تتجاوز مرحلتي «الرفض السلبي» الذي كان يكتفي بتحديد الهوية القومية تحديداً سلبياً (نحن لسنا غيرنا)، و «الاغتراب» الذي كان يكتفي بتقمّص الغرب، ويكتفي بتحديد الهوية القومية في ضوء المبادىء والمعايير المقتبسة من المجتمع الذي كان يستعمر الوطن العربي. فنحن «عرب» بالمعنى القومي نفسه المتداول في أوروبا، ونظرتنا إلى المسألة القومية مستمدة من النظريات التي نشأت في اطار الظروف الموضوعية للحياة الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فكان لا بد من مرحلة جديدة تتجاوز «سلبية رد الفعل» و «ايجابية التقليد الأعمى». وقد كانت المرحلة الجديدة (مرحلة وعي الذات) أي مرحلة «اكتشاف النظرية الثورية في ضوء السياق التاريخي المعاصر للثورة العربية»، نتيجة انتقال الفكر العربي من مستوى العقلية الأرسطية والمنطق الصوري والتفكير الحدسي، إلى بناء التصورات بناء جدلياً استناداً إلى تحليل موضوعي لبنية الواقع القومي وتحديد التناقضات الأساسية فيه.

فالمنهج العلمي الجدلي التاريخي، الذي ما يزال استخدام الفكر العربي الثوري له استخداماً أولياً، هو ثمرة من أهم ثمار التطور في الوعي القومي العربي، وهو الأداة المساعدة على تكوين نظرة علمية ثورية إلى المسألة القومية، واكتشاف الأبعاد الحقيقية لهذه المسألة، وفهم حقيقة الامبريالية والصهيونية والرجعية، وتحديد طريق الثورة العربية.

- ٣ -

إن التزام المنهج العلمي الجدلي التاريخي في بحث المسألة القومية، سوف يكشف لنا بادىء ذي بدء عمّا استقر في الذهن العربي من آثار المراحل والمناهج السابقة التي كانت تنظر إلى المسألة القومية نظرة جزئية أو نظرة مجرّدة أو نظرة فلسفية عامة... الخ، الأمر الذي كان من شأنه أن يتعامل الفكر العربي مع «المسألة القومية» كما لو أنها مجرد مسألة نظرية، ومقولة فكرية، فيكتفي منها بالبحث الايديولوجي معزولاً عن البحث السوسيولوجي، وعن الجوانب العملية والتطبيقية والنضالية. وعندئذ تصير «الايديولوجيا» منظومة من الأفكار مستقلة عن حركة الواقع، تحجب الرؤية بدل أن تضيء الطريق. فالمسألة القومية تنطوي على حقيقتين متداخلتين لا يمكن عزلهما: **الواقع القومي، والفكرة القومية.**

إن الفكرة القومية تستطيع أن تتجاوز الواقع القومي المحدّد، وأن تكتشف ما هو مشترك وما هو عام بين المجتمعات القومية، وأن تستخلص نظرية في القومية ذات طابع شمولي، وأن تتعدد هذه النظريات كما تتعدد النظريات في الحرية وفي الاشتراكية.

إلّا أن المنهج العلمي الجدلي التاريخي الذي يمكن أن يأخذ بعين الاعتبار ذلك كله، لا يمكن أن يجعل من الفكرة القومية والنظريات القومية أساس البحث في «المسألة القومية» لأن الفكرة جزء من كل، هو «الحقيقة القومية» التي تشمل الفكرة وواقعها في وقت واحد، وعلاقة النظرية القومية بواقعها علاقة جدلية. لذلك، فإن الأبحاث المقارنة في النظريات القومية لا تستطيع أن تكتفي بالمقارنة النظرية بشكل مستقل عن الدراسة المقارنة لواقع المجتمعات وظروف تطورها، إلّا إذا حكمت على نفسها بأن تبقى في حدود المطلقات والمجردات بعيدة عن التأثير الحي الفعّال في الواقع القومي.

وفي ضوء ذلك، تتضح ضرورة التمييز بين القومية كظاهرة اجتماعية تاريخية وبين النظرية القومية التي قد تنشأ من دراسة تلك الظاهرة في الزمان والمكان المحددين، وقد تنشأ بعيداً عن التحليل العلمي الجدلي التاريخي لها.

لذلك فنحن مطالبون، إذا أردنا أن نخرج من ضباب التجريد إلى وضوح المشخّص والملموس، أن نستبدل عبارة «المسألة القومية» العامة، بعبارة «القضية العربية» و «المسألة القومية العربية»، وعندئذ نرفع الالتباس وتتحدد هوية المسألة تحديداً جغرافياً وتاريخياً وحضارياً، وتتضح أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بوضوح أدق وأشمل وأعمق. فالمسألة القومية العربية لم تُطرح إلّا عندما بدأت ملامح النهضة العربية المعاصرة، وعندما بدأ العرب يطرحون هذا السؤال على أنفسهم: من نحن؟ أي عندما بدأوا يطرحون من خلال هذا السؤال مسألة التخلف والانحطاط والتجزئة والاستعمار والضياع، ومسألة الموقف النظري والعملي من واقعهم ومن ماضيهم ومستقبلهم. فالمسألة القومية بالنسبة إلى العرب هي «نظرية»، و «حركة»، و «نضال»، و «ثورة» عميقة الجذور، تلبي حاجات النهضة القومية وتخلق الشخصية العربية خلقاً حضارياً انسانياً جديداً، في ضوء مسلّمات عصرنا، عصر الاشتراكية، عصر الجماهير والأمم المناضلة من أجل وحدتها وحريتها.

- ٤ -

منذ ما يقرب من قرن ونصف، انتبه مبعوث مترنيخ «بروكش فون اوستن» إلى ظاهرة «انبعاث الروح القومية» عند العرب. ففي ١٦/٦/١٨٣٣، يكتب بعد أن عاد من مهمته في مصر قائلاً[1]:

«إنني أرى، إلى جانب اضمحلال امكانات الباب العالي، وهيبته المتداعية يوماً بعد يوم، جيشاً عربياً

---

(١) جوزف حجار، أوروبا ومصير الشرق العربي، ترجمة ماجد نعمة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٦)، ص ٨٥.

مدرباً أحسن تدريب، مزهواً بالنصر، وادارة في غنى شبه تام عن الأتراك، وانبعاث الروح القومية عند العرب، وتقديراً متصاعداً وواسعاً يتمتع به محمد علي على امتداد البلاد الناطقة بالعربية».

وفي عام ١٩٠٥ ظهر في باريس كتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان **يقظة الأمة العربية** لنجيب عازوري مؤسس «رابطة الوطن العربي»، يقول فيه(٢): «إن يقظة الأمة العربية تقترن بظاهرة سعي اليهود لإعادة انشاء مملكة اسرائيل. ومكتوب على هاتين الحركتين أن تصطدما وأن تصطرعا باستمرار، وأن يتحدد مصير العالم من خلال هذا الصراع».

وفي عام ١٩٠٧، أشار تقرير اللجنة المشتركة من أساتذة جامعتي لندن وباريس المختصين بتاريخ الحضارات القديمة، الذين كلّفوا دراسة العوامل التي تهدّد مستقبل الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية، إلى أن الخطر يكمن في المنطقة التي تطل على الساحلين الشرقي والجنوبي للبحر الأبيض المتوسط حيث يقطن شعب تعداده ٣٥ مليون نسمة ـ آنذاك ـ وحيث تتوفر له كل عوامل الوحدة(٣).

هكذا استبق الاستعمار والصهيونية العرب في ادراك ملامح المرحلة التاريخية العربية وما تحمله من نتائج على مصير العالم، وراحوا يخططون على جميع الأصعدة الفكرية والسياسية والاقتصادية لخنق روح النهضة العربية وطمسها وتشويهها. فنشأت المسألة القومية وتطورت، وسط معارك الجدل الفكري والنضال العملي.

وغابت في البدء عن أنظار أبنائها عن وعيهم، وخطط أعداؤها ليجعلوها تصطدم دوماً بأعداء من الداخل أكثر مما تصطدم بأعدائها الخارجيين.

ولكن المسألة القومية كانت تخرج من المعارك والأزمات أكثر رسوخاً في وعي الجماهير العربية، وأقوى على مغالبة الأعداء، وأكثر قدرة على كشف التناقضات الداخلية والخارجية، فنضجت فكرتها وأصبحت تتغذى باستمرار من ينابيع التراث القومي الحيّة، والتراث الثوري العالمي، وحركة النضال القومي، وتغتني بممارستها الدائمة النقد الذاتي، وتمسكها بالمنهج العلمي الجدلي التاريخي، وتستمد من التطور العام للمجتمعات الحديثة المعزز أهمية الظاهرة القومية ودورها الايجابي، ومن دروس التجارب القومية السلبية عبر التاريخ، مبررات الربط الجدلي بين القومية والاشتراكية والحرية ضمن منظور انساني حضاري تقدمي.

ـ ٥ ـ

في ضوء نشأة المسألة القومية هذه وتبلورها الفكري كايديولوجيا عربية ثورية، وتجاربها التنظيمية المتعددة الهادفة إلى حمل رسالة النضال من أجل تحقيق أهداف الأمة الكبرى، نستطيع أن ندرك أبعاد المعاناة التي مرّت بها أمتنا، وهي تتخطى مرحلة الانحطاط، مرحلة

---

(٢) E. Kamenka, *The Nature and Evolution of an Idea: Nationalism* ([Australia]: Australian N.U.P., 1974).

(٣) انظر: الياس فرح، ٦ تشرين بين التسوية والتحرير (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٤).

الاستعمار والتخلف والتجزئة والاستغلال الطبقي والضياع، في سبيل انضاج وعيها ذاتها وواقعها، والتصدي لتناقضات هذا الواقع.

فالمسألة القومية جابهت خلال مسيرة النهضة العربية مشكلات، القطري والقومي، والأمة والطبقة، والطليعة والجماهير، والأصالة والحداثة، والعام والخاص، والقومية والأممية، ومشكلة الاطار الحضاري الذي تتحقق فيه النهضة العربية... الخ.

وقد كان اكتشافها السياق التاريخي الجديد الذي يعيش فيه العالم المعاصر والأمة العربية، مساعداً لها على اكتشافها الأجوبة المنسجمة مع قوانين حركة الواقع، لا تلك التي تكتفي بتطبيق القوالب الفكرية السلفية الجاهزة السابقة للتجربة المعاصرة المتخلفة عن استيعاب معطياتها الجديدة. وأصبح ممكناً الجواب عن السؤال الذي تطرحه المسألة القومية في النصف الثاني من القرن العشرين[4]:

أي معنى لـ «القومية»، ولكلمة «قومية»، يمكن أن نعطي «القوميات المعاصرة»؟

وما هي الرابطة التي تقوم بين التطور الاقتصادي والاجتماعي والتطور العام لموضوعات الايديولوجيا القومية؟

وأي مكان يمكن أن تحتل الظاهرة القومية في النظام الدولي في هذه المرحلة من حياة العالم الراهن؟

وهل هناك تقدم وازدهار أم تراجع أم ثبات في حياة القوميات والحركات القومية، في عصرنا هذا؟

إن معاناة الأمة العربية واقع ضمرت جذور علاقته بالماضي القومي، وابتعدت ملامح حياته عن سمات هذا العصر الحضارية، ومجابهتها أعتى القوى وأكثرها رجعية في عالمنا الراهن (الامبريالية والصهيونية)، وصراعها مع ذاتها لتخلق واقعاً جديداً، وتتحرر من التجزئة والتخلف والاستغلال الطبقي وعوامل الضياع القومي والحضاري وتسترد حريتها ووحدتها وانطلاقتها... إن هذه التجربة العميقة التي تقوم بها الأمة العربية في هذا العصر، قد جعلتها تدرك صورة العالم وصورة نفسها ضمن اطاره، وأن تكتشف حقيقة موضوعية تتعزز كل يوم، وتأتي البراهين العملية تباعاً مؤيدة لها: وهي أن ما يميز النصف الثاني من القرن العشرين هو تداخل قوتين كبيرتين، كانتا خلال قرن مضى متنافستين ومتناحرتين (الاشتراكية والقومية). فالأحزاب الاشتراكية بكل ايديولوجياتها تستردّ اليوم القومية التي كانت مستغلة من الطبقة البرجوازية، وتضعها في حمى الجماهير الكادحة المناضلة والطبقة العاملة. وفي العالم الثالث ولدت «قومية جديدة» تجمع بين مفاهيم ومواقف التحرر والنضال الطبقي والوحدة القومية وتأكيد السيادة، في تركيب فكري ونضالي أصيل، لا يمكن رده ببساطة إلى المفاهيم

---

(٤) انظر: R. Girardet, dans: *Revue française des sciences politiques*, vol. 5, no. 3 (1965), p. 423.

والممارسات القومية والاشتراكية في أوروبا بالأمس.

والتجارب الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية، تشهد بدورها ظاهرة تعدد المراكز القومية، ومحاولات تجاوز التناقض الذي كان قائماً بين النزعتين القومية والأممية، أي محاولة استيعاب السياق الجديد والمعطيات الجديدة للمرحلة الراهنة التي تمر بها الانسانية والأمم والمجتمعات البشرية في صراعها مع القوى المناهضة للتحرر والسيادة والاستقلال والتقدم والسلام. إن الدراسة المقارنة للاتجاهات والنزاعات والتجارب القومية في النصف الثاني من قرننا، تؤكد نضج مفهوم جديد للقومية.

- ٦ -

إذا صعدنا إلى أصول تشكّل مفهوم القومية واستعرضنا المراحل الكبرى لتطور المسألة القومية في الغرب، وجدنا أن كلمة «وطن» قد سبقت كلمة «القومية» في الاستعمال. فإلى القرن السادس عشر يرجع تبلور معنى كلمة وطن: (البلاد + الحرية)، ومن هنا كانت كلمة روسو «من لا وطن له، لديه بلاد على الأقل»، ومن هنا أيضاً كانت كلمة كارل ماركس «العمال لا وطن لهم».

أما كلمة «قومية»، فلا نجد لها قبل الثورة الفرنسية استعمالاً لا في انكلترا ولا في فرنسا. فقد رافق استعمال كلمة القومية في الغرب انبعاث الأمم الكبرى في أوروبا (فرنسا وانكلترا والمانيا وايطاليا) نتيجة ثورات كبرى. وما يميز تطور القومية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، هو كونها «قوة يمكن وصفها بأنها يسارية انتقلت إلى أيدي اليمين في أواخر القرن التاسع عشر»[٥]، فقد بدأت في صورة «قوة تغيير» التفّت حولها الجماهير في الثورة الفرنسية. وكان مفهومها القومي ذا بعد أممي، لأنها كانت فكرة «تحرُّر اجتماعي» إلى جانب كونها فكرة «تحرر قومي». وكانت تقدمية بكل ما تعني التقدمية من معنى. فباسم الحرية الفردية والحرية الجماعية للأمم قامت الثورات الأوروبية بين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨، وكذلك باسم العدالة والمساواة. وقد كانت القومية اليسارية في النصف الأول من القرن التاسع عشر رداً على أممية الارستقراطيين والحلف المقدس، في القرن الثامن عشر. بيد أن الموقف تبدّل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بظهور «الاشتراكية» كيسار جديد. فكان على القومية الليبرالية أن تختار أمام (التكوين الرأسمالي للانتاج)، بين التوقف عند التحرر السياسي، أي البقاء حيث تقتضي مصالح البرجوازية، أو استكمال جوانب التحرر والالتحام بالفكرة الاشتراكية. والذي حدث في أوروبا، هو أن القوى اليمينية قد توحدت خلال أعوام ١٨٨٠ ـ ١٩١٤ تحت لواء القومية، والقوى اليسارية تحت لواء الاشتراكية. وهكذا ارتبطت القومية في أوروبا ارتباطاً عميقاً بنمو الطبقة البرجوازية وتطورها.

إن هذا التبلور في الفكرة القومية وهذا التطور الذي شهدته في أوروبا، لم يأخذ الشكل

---

(٥) انظر: موريس دو فيرجي (Maurice Du Verger) في مجلة *Respublica* البلجيكية.

والمحتوى نفسها في القارات والعصور الأخرى. ولا بد من دراسات مقارنة تكشف أصول الفكرة القومية وتشكّل الأمم حتى نكوّن فكرة علمية عن المسألة القومية وتطورها على صعيد عام، وعن علاقة مفهوم الأمة بالدولة وبالطبقة.

بل حتى على صعيد أوروبا نفسها، نلاحظ أن القول بأنه «لم يكن للأمة وجود في القرون الوسطى، لأن المجتمع الأوروبي كان زراعياً، ولأن حياة ما يقرب من ٩٠ بالمئة من السكان كانت تجري ضمن اطار وحدات صغيرة من المكان». إن هذا القول يقابله القول إن البلاد التي كانت بدورها تحت حكم ملك واحد، كانت مقسّمة اجتماعياً بواسطة حواجز أرضية لا يمكن اجتيازها. ويقابله القول إن القومية الجرمانية قد ظهرت إلى الوجود حوالى القرن العاشر وكانت حية في أفكار أقلية صغيرة من الرجال المتعلمين(٦).

وبالرغم من أن التطور الصناعي وتوسع القطاع التجاري في المجتمع الزراعي، قد أسقطا تلك الحواجز فأصبح للانتاج والحياة الاقتصادية حجم مساوٍ لحجم الأمم الأوروبية الحالية، وأن تطور الدولة الحديثة وبيروقراطيتها المركزية، قد ساعدا على تشكّل الأمم. كما أن مفهوم سيادة الشعب واعتباره مصدر السلطات قد ساعد على تطورها، إلاّ أن الأمم نمت في كثير من البلدان حيث لم تنمُ الدول، وحيث لم يتطابق تطور القومية مع الدولة، وحيث تعالت الدولة على الهوية القومية (كما هو الحال في المملكتين البروسية والهبسبورغية). كما أن القومية والشعور القومي، قد نبعا، في ايطاليا، من ردّ فعل على الكوارث التي ألحقتها دول قومية أخرى بها، وكذلك في فرنسا كردّ فعل على «القومية الجرمانية».

وإلى جانب «قومية الدفاع عن النفس» لدى الأمم الاسبانية والروسية والبولندية والبرتغالية والايرلندية... الخ، حيث المعارك المصيرية كانت المهاد الدائم للشعور القومي، نلاحظ قومية الارادة المصممة على تقرير المصير ذاتياً ارواء لتعطش الجماهير إلى جذورها وهويتها القومية، في دول كبولندا ويوغوسلافيا، ثم التضامن القومي والنزعات الاستقلالية في كندا وبلجيكا...

وهكذا، فإن القومية كظاهرة اجتماعية تاريخية وطبقية، قد جاءت في أوروبا نتيجة تطورٍ متوازٍ في عدة سلاسل من الروابط «العائلية» والتعلق بالأجداد والقرابة والسلالة، والروابط الموضوعية التي تشدّ الوحدات الاجتماعية إلى الأرض والدولة، والروابط الاقتصادية التي خلقت الاطار الملائم لتشكّل الظاهرة القومية، بعد أن كانت «الدولة ـ المدينة» (City أو Cité) اطاراً أضيق كحجم سكاني وعلاقات اجتماعية. وكذلك «الامبراطورية» التي كانت بدورها، اطاراً أوسع مما ينبغي.

وقد طُبعت الفكرة القومية في أوروبا بالطابع الديمقراطي من خلال تداخل «الليبرالية» و«النزعة القومية»، وعندما أعطى هيغل القومية هوية (المجموع الحقيقي العضوي المتطور في ذاته)، فإنه أبقى الحركة الديالكتيكية لحرية المجموع مفتوحة داخل اطار القومية.

---

(٦) البيرتيني، معنى الأمة (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٦)، ص ٣١ ـ ٣٤.

ومن كسموبوليتية كانط إلى قومية فيخته الخالصة، إلى جدلية هيغل الأمة ـ الدولة، إلى أممية كارل ماركس الاشتراكية، إلى النزعة الفاشية في النصف الأول من القرن العشرين، بدا كما لو أن التحول في المسألةِ القومية داخل أوروبا من نزعة ثقافية خالصة عند هردر إلى تسييس الفكرة القومية عند فيخته وهيغل، إلى ارتباطها بالنزعة الجمهورية، ومن ثم معاداتها الاشتراكية وارتباطها بالنازية... كل ذلك قد بدا كما لو أنه تلخيص للتطور التاريخي العام للمسألة القومية، لأن أوروبا، قد بقيت منذ القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين المركز الحضاري الذي تدور حوله حياة العالم بأسرها تقريباً، ومنها خرجت الموجات الاستعمارية التي أخضعت مصير الشعوب في القارات الأخرى طويلاً لمصالحها وارادتها فكأن تاريخها في تلك الفترة هو تاريخ العالم بأسره.

إلاّ أن خارطة العالم وحياة الشعوب، والمسألة القومية معهما، قد دخلت في سياق جديد بعد الحرب العالمية الثانية.

- ٧ -

إن مركز الثقل الرئيس الذي احتلته أوروبا في حياة العالم ردحاً طويلاً من الزمن، قد أبعد الأذهان عن التركيز حول نشأة القوميات وتشكّل الأمم في القارات الأخرى لا بل وحتى في شرق أوروبا نفسها. إن تطبيق المناهج المقارنة على دراسة القوميات خارج اطار القارة الأوروبية يعزّز الحقيقة المستخلصة من تجارب القوميات في أوروبا وهي أن السياق التاريخي الذي نشأت فيه، هو على جانب من التعقيد يستعصي على كل تفسير تبسيطي. كما أنها تؤكد أهمية البحوث العلمية حول المسألة القومية نظراً لما تحتله الأمم والعلاقات بين الشعوب من مكانة في تطوير عالمنا الراهن، كما تفسّر الاهتمام المتزايد الذي تحظى به دراسة المسألة القومية من جميع وجوهها لدى الباحثين في العالم أجمع، في السنوات الأخيرة.

من هذه البحوث دراسة كارل دويتش (Karl Deutsch) حول «القومية والترابط الاجتماعي» والتي ذهب فيها في اتجاهين[٧]:

أ ـ مشكلة الأمم التي تشكّلت في دول متعددة القومية في أوروبا وفي أقطار أخرى من العالم.

ب ـ المشكلة التي تطرحها الأمم والقوميات في الدول الحديثة التي قامت في آسيا وفي افريقيا إثر انهيار الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى.

حيث أدّى اكتشاف الاختلاف الكبير والتعدّد في الصيغ، والظروف، والسياق التاريخي لنشأة كل منها إلى تعذّر تطبيق الصيغة الأوروبية، أي ربط تاريخ تشكّل الأمم الأوروبية التقليدية وانتقالها من الاقطاعية إلى الرأسمالية، بتشكّل الأمم الجديدة التي تميّز عصرنا.

---

(٧) انظر: نايدان باجيج، «تشكل القوميات في البلقان،» في: *Revue internationales des sciences sociales*, vol. 23, no. 3 (1971), p. 428.

لقد أخّر الاحتلال التركي، كما يقول نايدان باجيج، عملية التكوّن القومي في البلقان حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فما ان زال الاحتلال التركي حتى اشتعل الصراع بين الصرب والبلغار واليونان حول مقدونيا التي كانت على درجة من الوعي القومي استعصى على محاولات الضم والإلحاق. في حين أن تشكل قومية الجبل الأسود، في نهاية القرن الثامن عشر، قد مثّلت فيه عوامل العزلة الجغرافية دوراً كبيراً. كما أن عوامل القرابة اللغوية والسلالية والنضال من أجل الاستقلال ومن أجل الحق في التطور المهدّد باستمرار بعدوان خارجي . . . كل هذه العوامل قد مثّلت دوراً في خلق ارادة التفاهم والوحدة بين الشعوب السلافية في يوغوسلافيا. كما مثّلت العوامل الايديولوجية والثقافية دوراً هاماً في تشكّل مختلف الأمم البلقانية، وخاصة اليوغوسلافية منها. وقد كانت للعوامل السياسية والثقافية أرجحية على العوامل الاقتصادية في المسألة القومية، نظراً إلى التبدلات السياسية ـ الاجتماعية العميقة التي أحدثتها الحرب العالمية الثانية، وخاصة حرب التحرير والثورة الاشتراكية، التي أعطت للروابط بين الأمم البلقانية، أبعاداً جديدة.

ثم إن دراسة يوجي واطانوكي (Yoji Watanuki) عن تشكّل أمم آسيا الشرقية[٨] تشير إلى أن الأمم الصينية والكورية واليابانية، قد تشكّلت وحدتها السياسية والثقافية المتميزة تحت تأثير الكونفوشيوسية وغيرها من الفلسفات القديمة، وتأثير المعارك المصيرية في وجه الغزوات الخارجية.

ففي الصين تعود هذه الظاهرة إلى الألف الأول قبل الميلاد خلال عهد السلالتين تشيو (Tcheou) وتسين (Tsin) حيث قامت مملكة البيئة (Le Royaume du milieu) التي شكّلت وطن الصينيين ومهد حضارتهم.

أما كوريا، فإن وحدتها السياسية ترجع إلى عام ٦٧٠ بعد الميلاد حيث سيطرت سلالة سيّلا (Silla) وحين صمدت هذه الوحدة أمام الغزوات في عهد السلالتين كوريو (Korio) ولي (Li) منذ القرن العاشر حتى القرن العشرين. وقد كانت وحدة اللغة والسلالة إلى جانب العوامل الثقافية والسياسية من أهم عوامل التماسك في الوحدة الكورية.

أما اليابان فإن وحدتها السياسية قد تحققت في القرن الخامس وتوطدت في القرن السابع واستلهمت في ثقافتها الينابيع الصينية. وقد اتيح لها كما أتيح للصين وكوريا أن تشكل أمة متماسكة حية. وقد كان هذا البعد التاريخي للمسألة القومية في شرق آسيا أثره في تطورها الحديث في البلدان الثلاثة.

كما تشير دراسة خوسه أ. سيلفا ميكيلينا (Jose A. Silva Michelena) حول تشكّل الدول والأمم في أمريكا اللاتينية[٩]، إلى أن الحدود القومية في بلاد أمريكا اللاتينية لم ترسمها

---

(٨) انظر: يوجي واتانوكي، «تكوين الدول وتشكّل الأمم في شرق آسيا،» في: المصدر نفسه، ص ٤٥٠.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤١٢.

الأسواق، وان الأمم لم تتطور فيها بفعل التطور الاقتصادي والسياسي الناجم عن التزاحم لغزو السوق العالمي، كما حصل في أوروبا، وأن المسألة القومية في أمريكا اللاتينية قد سارت في مسار مختلف، لأن المجتمع بأسره موجّه من الخارج. لذلك فإن الدولة، والبيروقراطية، لم تأخذا شكل أدوات ضرورية لتحسين وضع قومي على صعيد السوق العالمي، بل على العكس، فإن السوق العالمي هو الذي فرض، عن طريق السلطات المهيمنة، شروط الحياة على البلاد. وأن ما من طبقة في الداخل اعتبرت الأمة غايتها، أو اعتبرت التطور الاقتصادي سبباً لنشوء الدولة. وأن المرحلة الاستعمارية قد جعلت الجماهير، الموزّعة بين الجندية والعمل نصف المأجور، خاضعة لنوعين من السيطرة، داخلية وخارجية. وقد شهد القرن التاسع عشر في جميع بلدان أمريكا اللاتينية، علمنة تدريجية للمجتمع وانهياراً متزايداً في تسلّط الكنيسة وهيمنتها، ونشأ صراع بلغ ذروته في المكسيك. إلّا أن آثار المرحلة الاستعمارية كانت أقوى من أن تسمح للتشكّل القومي أن يأخذ مداه في القرن التاسع عشر، لأن تلك المرحلة كانت سبباً في تهديم جزء من الحرف والصناعات المحلية، وحالت دون نشوء طبقة قومية قادرة على تحقيق هدف الاستقلال الاقتصادي.

وعندما أتت مرحلة الاستعمار الجديد في القرن العشرين، شهدت سيطرة سريعة للولايات المتحدة كقوة اقتصادية مهيمنة على جميع أسواق أمريكا اللاتينية. كما أن رؤوس أموال أمريكية ساهمت مباشرة في مشروعات تتعلق بالمواد الأولية، كالسكّر في كوبا وسان دومينيك وبورتو ريكو، والموز في أمريكا الوسطى، والنفط في فنزويلا، والنحاس في تشيلي... وجرى تحويل المعارف التقنية مع المشروعات الأمريكية والصناعات الناشئة في أمريكا اللاتينية.

وقد نبّهت أزمة الثلاثينيات إلى فكرة انشاء أمريكا اللاتينية صناعاتها الخاصة. وبدأت تتشكل طبقة صناعية جديدة محلية، وتتبلور الحركة الشعبية، ويظهر قادة ـ أمثال فاركاس في البرازيل وبيرون في الأرجنتين وكاسترو في كوبا واللندي في تشيلي ـ يعبّرون عن مطامح الجماهير، على الصعيد السياسي بتشكيل حكومات شعبية. ولم تكن البرجوازية قادرة على التصدي للمرحلتين الثانية والثالثة من التصنيع (أي انتاج السلع الوسيطة والمعدات).

ثم إن مسألة التخلّف لا تُحلّ كمسألة قومية ضمن اطار نظرية التحديث في أمريكا اللاتينية، كما تقول الدراسة، لأن هناك مشكلة عامة، هي مشكلة النمو اللامتكافىء في بلدان العالم ومناطقه. ولا بد من دراسة تاريخية مقارنة للتخلّف في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، حتى ندرك بحق بعداً هاماً من أبعاد المسألة القومية في العالم أجمع. فهذه المسألة تندرج ضمن اطار وضع معقد بالغ التعقيد في أيامنا هذه.

أما جان ـ ايف كالفاس (Jean-Yves Calvas) في دراسته عن الأصول الاجتماعية والاقتصادية لقوميات العالم الثالث[10] فيشير إلى أن الظاهرة القومية قد ازدهرت في منتصف

---

(١٠) انظر: *Revue française des sciences politiques*, vol. 15, no. 3 (1965), p. 446.

القرن العشرين في جميع البلدان النامية، وأصبحت القومية ايديولوجيا العالم الثالث، ومعها تعاملت الفكرة الاشتراكية تعاملاً ايجابياً.

إن لقوميات العالم الثالث، كما يقول، جذوراً اجتماعية واقتصادية. فالمقارنة بين مرحلة ما قبل استقلال البلدان النامية، وما بعدها، تكشف هذه الصلة بين القومية والوضع الاقتصادي والاجتماعي فيها، كما تكشف عن أصالة القوميات في العالم الثالث. ففي هذه القوميات توجع من الظاهرة الاستعمارية وآثارها التي كانت تستهدف خلق الروح الوطنية والانتماء القومي، كما أن فيها تذكراً حيّاً للماضي واستلهاماً لأمجاده، وفيها يمثل المثقفون المتحدرون من أصول اجتماعية شعبية دوراً هاماً، ويشكل صعود الشرائح الاجتماعية الكادحة والعاملة ظاهرة هامة ومؤثرة. وهكذا، فإن أساس القومية في البلدان النامية هو أساس اجتماعي أكثر مما هو مجرد اقتصادي، الأمر الذي يفسّر الصلة المألوفة بين ايديولوجيا اشتراكية وبين القومية.. فالاشتراكية، هنا تبتعد عن الصيغ التي أنضجتها الأوضاع الاجتماعية للرأسمالية الصناعية، لأن الصراع الطبقي يتركّز بصورة رئيسية بين قطاع قومي وقطاع لاقومي تابع. فالمسألة الاشتراكية شديدة الصلة بالمسألة القومية.

- ٨ -

إن النقاش النظري حول المسألة القومية قبل ثورة تشرين الأول/ اكتوبر ١٩١٧، بدأ مع صدور البيان الشيوعي في لندن عام ١٨٤٨، الذي احتوى على العبارة المشهورة، التي طالما أسيء تفسيرها: «العمال لا وطن لهم». كانت الحركة الثورية تهزّ أوروبا آنذاك، وتطرح المسألة القومية في صيغ جديدة. ومنذ ماركس حتى لينين، نجد الاشتراكيين يتناولون المسألة القومية على صعيد التكتيك الثوري، وقلما يطرحونها على المستوى النظري.

ومع ثورة ١٩١٧ تبدأ مرحلة جديدة، لأن الثورة اندلعت في بلد متخلف اجتماعياً واقتصادياً، متعدد القوميات، ولم تتفجر في مكان آخر. فكان على الدولة الاشتراكية الأولى التي انغلقت على مشاكلها في عزلة رهيبة، أن تتخذ من المسألة القومية موقفاً نظرياً وعملياً تجاه ما يحيط بها من عالم رأسمالي.

وبعد الحرب العالمية الثانية، تزايد عدد الدول الاشتراكية بسرعة، وطرأ تغيير على معطيات المسألة القومية أيضاً. فقد نشأ إلى جانب قضية العلاقات بين الدول الاشتراكية وغير الاشتراكية، قضية العلاقة بين الدول الاشتراكية نفسها، وطرحت على الصعيد النظري أسئلة جديدة حول المسألة القومية.

كيف تعاملت الاشتراكية مع المسألة القومية عبر المراحل المختلفة؟ وهل هناك مكان للمسألة القومية في عصر انتشار الاشتراكية وازدهارها؟

وعلى مثل هذه الأسئلة، تحاول هيلين كارير دانكوس (Helene Carriere

(D'Encausse) أن تجيب في دراستها عن «الشيوعية والقومية»(١١). فتنطلق من الاشارة إلى ملاحظة رئيسية، وهي أن ماركس وانغلز، بالرغم من تقديرهما أهمية المسألة القومية ووزنها في المرحلة التي أعقبت عام ١٨٤٨، فإنهما لم يعملا على انضاج نظرية حولها، بل اكتفيا بموقف اختباري تجريبي (Empirique) منها. لأن فكرهما قد اتجه نحو أمم كبيرة موحدة، كالمانيا وفرنسا وانكلترا، ومتقدمة اقتصادياً. ومن خلال هذا المنظار تكوّنت مفاهيمهما عن تطور المجتمع الأوروبي، وانطبعت آراؤهما عن المسألة القومية، فاعتبرا أن الديمقراطية البرجوازية التي تسبق الثورة الاشتراكية، ينبغي أن تقوم ضمن اطار دولة قومية، وأكّدا أن البروليتاريا، وهي تناضل ضد البرجوازية، تصبح هي الأمة بدورها. وهكذا يرتبط نضال العمال في كل أمة بالأممية البروليتارية، ويتحقق نوع من الربط بين الطبقة والأمة.

بيد أن هذه الصلة غابت عن اتباعهما، فبعضهم بنى على المصالحة التي أقامها ماركس بين مفهومي الطبقة والأمة مفهوماً اشتراكياً قومياً كجوريس وبرنشتاين. وآخرون أمثال بليخانوف رفضوا هذه الصلة أصلاً، واعتبروا فكرة ماركس بمثابة إدانة الأممية.

لقد أدخل ماركس وانغلز المسألة القومية في اطار التطور الاجتماعي العام، واعتبرا الوحدة الاقتصادية الكبرى هي اطار التقدم الاجتماعي. لذلك، دعما التطلعات القومية التي تذهب في اتجاه تشكيل وحدات سياسية كبرى، ولم يعطيا أهمية تاريخية لمطالب المجموعات الصغرى التجزيئية(١٢). كما أن اهتمامهما المتركز على البلاد الصناعية المتقدمة حيث توجد البروليتاريا وتملك الحظ في التطور، قد جعلهما يحوّلان أنظارهما عن الأمم الفلاحية، باستثناء بولندا التي كان صراعها مع روسيا القيصرية يكسبها طابعاً ثورياً.

إلّا أننا نلاحظ منذ ستينيات القرن التاسع عشر، وخاصة بعد التمرد البولندي تزايداً في اهتمام رائدي الماركسية بالمسألة القومية والحركات القومية. وقد حرصا على النظر إلى هذه المسألة من منظار ثوري، وعلى ربط أحكامهما وأفكارهما بالمعطيات الواقعية وبالأوضاع المشخّصة رافضين كل موقف جامد ودائم.

ولا شك أن عدم اتخاذ موقف نظري اطلاقي حول المسألة القومية، قد كان عاملاً في تعدد الاجتهادات، سيما وأن الأنظار لم تعد مركّزة على الأمم المستكملة وحدتها وتطورها بل أصبحت لدى رينر سبرنغر (Renner Springer) ولدى بوير (Bauer) ولينين، موجهة نحو الشعوب الأقل تقدماً وحيث المسألة القومية أكثر تعقيداً وحدّة وخاصة في الدول المتعددة القوميات.

ومن التجربة السوفياتية وتصديها في البدء لحل المسائل القومية التي طرحت عليها، حلاً براغماتياً، وكذلك من خلال النظرية والنهج اللذين حدّدهما ستالين للمسألة القومية في

---

(١١) انظر: المصدر نفسه، ص ٤٦٦.

(١٢) رفض ماركس الاعتراف للشعوب السلافية بمستقبل قومي، وعارضه كاوتسكي في المقدمة التي كتبها لكتاب كارل ماركس حول الثورة والثورة المضادة عام ١٨٩٦.

ضوء الواقع القومي، قامت في عام ١٩٣٦ الفكرة التي تقول بأن كل شيء يمكن حله داخل الاطار القومي في الاتحاد السوفياتي، دون منظور عالمي يحدد آفاق التجربة.

إن دراسة هيلين دانكوس تتناول بدورها المسألة القومية من زاوية العلاقة بين الدول الاشتراكية، فتشير إلى التبدّل الذي أحدثه اتساع المعسكر الاشتراكي في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. فالانتظار اللامجدي للثورات الأوروبية بعد قيام ثورة تشرين الأول/ اكتوبر، حلّ محله امتداد الاشتراكية في شرق أوروبا ثم انتصار الثورة الصينية عام ١٩٤٩. ولم يعد الاتحاد السوفياتي وحيداً في العالم، بيد أن الاشتراكية لم تقم في البلاد المصنّعة تصنيعاً عالياً بل قامت في الحلقات الضعيفة من السلسلة. لذلك فإن أعوام ١٩٤٥ - ١٩٤٩، شهدت نموذجين للانتقال إلى الاشتراكية مختلفين اختلافاً كلياً، أحدهما يمكن أن يوصف بأنه «ستاليني» يؤكد الدور القائد للاتحاد السوفياتي وهو النموذج الذي حدثت فيه الثورة من فوق بمساعدة الجيش الأحمر. أما النموذج الثاني فهو النموذج الذي جرى في يوغوسلافيا التي حررت نفسها قبل دخول الجيش الأحمر، وكانت حرب التحرير فيها اختياراً ثورياً، عزّز انتصار استراتيجيا النهج الاستقلالي وعلاقات المساواة مع التجربة السوفياتية، وهذا ما حدث وتكرّر مع التجربة الصينية. وهذا النموذج الآخر للثورة الاشتراكية لم يلبث أن كشف التناقضات القومية داخل المعسكر الاشتراكي. وقد شهدت الفترة الفاصلة بين نهاية الحرب ونهاية العهد الستاليني تمركزاً قومياً حاداً داخل الاتحاد السوفياتي. كما طرحت يوغوسلافيا خلال عامي ١٩٤٧ - ١٩٤٨ لأول مرة مسألة العلاقة بين الأمم الاشتراكية، ثم بدأت تظهر الرغبة المكبوتة لدى الأحزاب الشيوعية في بناء تجربتها الاشتراكية بصورة مستقلة، كما بدأت تظهر الحاجة إلى اعادة النظر في المفاهيم الستالينية من أجل تحقيق المصالحة بين القومية والأممية البروليتارية.

ولا شك في أن الأزمات التي شهدتها سنوات ١٩٥٦ في المجر و١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا والخلاف الصيني - السوفياتي، والمواقف النظرية والاستراتيجية للأحزاب الشيوعية الأوروبية في النصف الثاني من السبعينيات وقيام ما أطلق عليه اسم «الشيوعية الأوروبية»... كل ذلك إنما هو تعبير عن الأزمة في العلاقة بين القومية والايديولوجيا الأممية وهي أزمة لا يُمكن حلّها إلاّ بالانطلاق من مفهوم علمي ثوري جديد للمسألة القومية في ضوء المعطيات الراهنة في العالم الراهن.

وأول هذه المعطيات يكمن في القومية نفسها التي أشار بيير هاسنر (Pierre Hassner) في دراسته عن «القومية والعلاقات الدولية»[١٣]، إلى المعاني الجديدة التي تميّزها في السياق الجديد لهذه المرحلة التاريخية التي تظهر أمامنا عالماً من «القوميات» لا من «الأممية». ولكن أية قومية هي هذه؟ هل هي قومية القرن التاسع عشر التي قامت على اعتبار الأمة فوق الجميع، القومية التوسعية، قومية الحرب التي كان الشعور الأممي رد فعل عليها أم الشعور القومي الذي يستهدف بناء الأمة وتحقيق حريتها واستقلالها وتقدمها من خلال نظرة تستوعب المصالح العادلة لجميع الأمم وتجعل من الاشتراكية المعيار الموضوعي لتأكيد انسانية القومية؟

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ٤٩٩.

هل هي القومية المنغلقة على ذاتها، أو تلك التي تعطي لنفسها الأولوية المطلقة في كل شيء وتعتبر نفسها شكلاً من أشكال القدر؟

أم هي القومية التي تكشف في البلدان النامية عن نزعة تحررية وتقدمية وحضارية تنسجم مع جوهر الموقف الأممي؟

لا شك في أن وجه القومية في عصرنا، ما عدا الحالات الشاذة التي تشكّل العقيدة الصهيونية صورتها الأكثر بروزاً، هو وجه مشرق وايجابي حيث تحققت المعادلة بين القومية والاشتراكية والديمقراطية، أو هي في طريق التحقيق.

وقد أشار موريس وبيير روي (Maurice & Pierre Roy) في كتابهما عن **الأنظمة السياسية في العالم الثالث**(١٤) إلى أن البلدان النامية تجهد في التفتيش عن الايديولوجيا التي تلبّي حاجاتها وتتلاءم مع مصالحها القومية، وهذه الايديولوجيا تولد من المعاناة ولا تولد كاملة، بل هي نتيجة تطور فكري، ولها جذور عميقة في التاريخ البعيد، وايديولوجيا العالم الثالث هي «القومية والاشتراكية».

- ٩ -

يتبين في ضوء ما سبق، أن القومية هي أحد المحركات الكبرى في عالمنا المعاصر، وأنها قد تعني مجرد شعور أو موقف جماعي، كما قد تعني حركة أو نظرية أو رؤية للعالم، ولاكتشاف الذات، والالتحام بالمصير العام، وتجديد المجتمع باتجاه الحرية الحقيقية والاستقلال وتحقيق انسانية الفرد والجماعة.

وهي في جميع هذه الحالات تعني وجوداً تاريخياً جماعياً، كما تعني من جهة أخرى، وعي هذا الوجود، وعملاً ونضالاً من أجل جعله وجوداً انسانياً وفي خدمة الانسانية.

وهي من هذه الزاوية تكمل الرسالة التي حملت لواءها الديانات. وهي بما تنطوي عليه من معانٍ نضالية، إنما تتصدى للعوامل التي خنقت روح الرسالة في تلك الديانات وجعلتها موضع استغلال رجعي. وما نشهده من حوار بين الماركسية والمسيحية في أوروبا اليوم، ومن حرص القوميات في العالم الثالث على القيم التراثية الروحية، إنما هو تعبير عن كون الاشتراكية والقومية، كلتيهما قد تجاوزتا مرحلة رد الفعل على الديانات. كما أن الانفجارات والتطورات والثورات في المؤسسات الدينية نفسها، قد أفسحت المجال للتمييز بين الدين والرجعية وعدم أخذ الأول بجريرة الثانية.

وقد توقّف جورج غوريلي (G. Goriely)، الأستاذ في جامعة بروكسل الحرة، عند العلاقة بين الدين والشعور القومي(١٥)، فكشف في دراسته عن أن حركة القوميات في القرنين

---

(١٤) Maurice et Pierre Roy, *Les Regimes politiques dans le tiers monde* (Paris: [s.n.], 1977), pp. 180-190.

(١٥) انظر: Georges Goriely, in: *Respublica* (Bruxelles), no. 1 (1977).

التاسع عشر والعشرين، لم تكن بعيدة عن العامل الديني إلاّ أنها لم تكن قريبة من التديّن التقليدي والتعصّب الديني. وأن العلاقة الأكيدة والغامضة بينهما، إنما ترجع إلى الغموض الذي كان قائماً في مفهومي الدين والقومية نفسيهما.

فالقومية باعتبارها تستلهم التراث القومي وتقوم على الشعور بالانتماء وبالهوية الثقافية، لا تشكل بتراً مع الايمان التقليدي، ولكنها قد لا تتطابق معه، لا بل تتعارض عندما يأخذ الدين شكل قوة محافظة مهمتها الدفاع عن السلطات المهيمنة المستغلة القائمة كما حدث في المجتمعات الأوروبية.

فإذا كنا لا نستطيع أن نفصل قضية بولندا عن علاقتها بالكنيسة الكاثوليكية وكذلك الحال في نضال ايرلندا، ونجاح الاصلاح الديني في شمال هولندا واخفاقه في جنوبها، وكاثوليكية الكروات وأرثوذكسية الصرب، وعلاقة القومية الالمانية باللوثرية والقومية الانكليزية بالانكليكانية... إلى غير ذلك من الأمثلة التي تكشف الصلة بين الدين والعاطفة القومية - فإننا من طرف آخر لا نستطيع أن نرى في حركة البعث الايطالي (Risorgimento) أية صلة بالموقف الديني، كذلك فإن الوحدة الكنسية التي تطبع مختلف الكنائس الأرثوذكسية، لم تكن أبداً مصدراً لوحدة قومية ولا حتى لمجرد قيام تضامن بين مختلف البلدان التي تدين بها.

وهذا الوضع لا يختلف خارج الاطار الحضاري والثقافي الأوروبي. فالعلاقة بين الدين والقومية العربية، وبين الدين والمسألة القومية في الهند، تؤكد هذه الحقيقة وهي أن صيغ هذه العلاقة تتفاوت بتفاوت الظروف والأوضاع والعوامل التي تتدخل بشكل طبيعي أو مصطنع في طبع هذه العلاقة بطابع ايجابي أم سلبي.

إن المكانة الخاصة التي يحتلها الاسلام في الحياة العربية والتاريخ العربي، لا يمكن أن تتقلص عند حدود المفاهيم المجردة للدين، طالما كان الاسلام تجربة قومية وعالمية أحدثت انقلاباً شاملاً في المجتمع العربي وفي الأوساط الحضارية الممتدة على قارات آسيا وافريقيا وأوروبا نفسها خلال قرون طويلة.

فالمسألة القومية تتضمن هذه الصلة الثورية بالتراث القومي الروحي والاجتماعي والثقافي للأمة.

- ١٠ -

إننا لا نملك حتى الآن فكرة علمية دقيقة عن المسألة القومية لأسباب منهجية أغرقت البحث فيها في الماضي في اطار النزعات الاختبارية والفلسفية، التي اكتفت بالقياس على التجربة الأوروبية فلم تنظر إلى واقع التجارب القومية ولم تستوعب سياقها التاريخي الجديد في النصف الثاني من القرن العشرين.

لذلك، فإن البدء بتكوين نظرة علمية إلى المسألة القومية، إنما ينطلق من الدراسة

العلمية لهذا السياق، وتحليله سوسيولوجياً وسيكولوجياً والإحاطة به بنظرة شاملة تستهدف التناقضات الأساسية التي تتصدى لـ «المسألة القومية» لحلها في الزمان والمكان المحددين.

وعلى الصعيد العربي، نجد في عجز المفاهيم القومية الخالصة، والمفاهيم الأممية المجردة، عن الإحاطة بالمسألة القومية العربية، صورة فشلها في اكتشاف شبكة التناقضات الأساسية للواقع العربي في المرحلة التاريخية الراهنة، وبالتالي العجز عن تحديد الأهداف الكبرى لهذه المرحلة. ومردّ هذا الفشل يرجع بالدرجة الأولى إلى الموقف المنهجي الخاطىء التي انطلقت منه تلك المفاهيم، المنهج غير العلمي الذي جعلها تقيس أوضاع الأمة العربية على أوضاع مختلفة تماماً، وتعالج المسألة القومية بذهنية غربية، «قومية خالصة» عزلت المسألة القومية عن المحتوى الاشتراكي العلمي لها، وجنحت بها إلى «الفاشية» أو «أممية خالصة» اكتفت برفض القومية العربية واتهمتها بما ليس فيها أو لها، بالنزوع الفاشي والرجعي، فكانت مجرد رد فعل على نزعة غربية معاكسة. وهكذا بقيت النزعتان السابقتان تفكران وتعملان خارج اطار الواقع العربي، بسبب قصورهما عن إدراك الفرق الجوهري بين المسألة القومية في البلدان المستعمَرة المجزأة وبين الحركات القومية البرجوازية في أوروبا.

فالقومية العربية شأن القوميات الأخرى في قارات افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، لا يمكن أن تفهم إلاّ في ضوء فهم الظاهرة الاستعمارية وتطور الامبريالية، وآثارهما المترسّبة خلال مرحلة طويلة من الزمن. وإلاّ في ضوء وعي تلك الشعوب هويتها التاريخية والاجتماعية والثقافية، وتطلّعها نحو مستقبل تتخلص فيه من عوامل الضياع كافة، ويتاح لها أن تبني شخصيتها من جديد، أي من خلال نضالها ضد الامبريالية والاقطاع والبرجوازية وجميع البنى الطبقية المستغِلة المتحالفة مع الأجنبي ضد العدو الأكبر، ضد مصلحة الأمة ككل، ضمن منظور تحرري توحيدي تقدمي حضاري انساني.

فهي قومية «جماهير كادحة مناضلة» وليست قومية برجوازية أو برجوازية صغيرة، إنها قومية اشتراكية في عصر الوحدات القومية الاشتراكية.

وكما أن الصراع الطبقي قائم في صلب المسار الواقعي للتاريخ البشري، كذلك الصراع القومي، لا يمكن المبالغة في تأثيره أو التهوين منه. وعبر مختلف التجارب والمراحل التاريخية نلاحظ اتحاد عوامل الصراع القومي مع عوامل الصراع الطبقي إلى الحد الذي تصبح فيه واحدة حيناً، وقد تلتقي أو تتناقض وتتصارع أحياناً أخرى[١٦].

إن المناقشة التي اشترك فيها مكسيم رودنسون وارنست ماندل حول «جدل الطبقة والأمة» في جامعة بروكسل الحرة (آذار/ مارس ١٩٧١)، أشارت إلى جانب من جدلية العلاقة بين الطبقة والأمة، من خلال نص انغلز في كتابه ضد دورنغ الذي يؤكد الحقيقة في

---

(١٦) انظر المحاولة القيمة لعزيز السيد جاسم في كتابه: جدل القومية والطبقة في السياق التاريخي: نشوء الأمة العربية وكفاحها القومي (بغداد: مطابع وعي العمال، ١٩٧٦).

كون الصراع القبلي أو السلالي مصدراً للصراع الطبقي عندما «تتحول قبيلة أو مجموعة عرقية غزت أخرى، إلى طبقة عليا».

إن «نشوء جنين الأمة أقدم تاريخياً من ميلاد الطبقة»(١٧)، وإن «نشوء الطبقة قد تمّ ضمن اطار التطور البنيوي للأمة». فالطبقات نشأت ـ كما يقول انغلز ـ بعد ظاهرة تقسيم العمل، حيث نجم عن أول تقسيم للعمل، انقسام المجتمع إلى طبقتين هما الأسياد والعبيد، ثم جاء انفصال الحرفة عن الزراعة. وهكذا، فإن الانقسام الطبقي قد تم ضمن اطار التطور الاجتماعي العام.

إن التحليل التاريخي لواقع «العشيرة ـ الطبقة» و «الطائفة ـ الطبقة» و «الشعب ـ الطبقة» و «الأمة ـ الطبقة» يكشف عن أبعاد جديدة في المسألة القومية. والتاريخ العربي، كالواقع العربي الحاضر، يقدم مادة غزيرة. فوضع قبيلة قريش (العشيرة ـ الطبقة) إبّان الدعوة الاسلامية، ووضع الارستقراطية العربية في الحكم الأموي (القومية ـ الطبقة)، ووضع الأسرة العباسية (الأسرة ـ الطبقة)، ثم حكم الطوائف (الطائفة ـ الطبقة)، ثم الأسرة العثمانية وأسرة محمد علي وغيرها من الأسر والعائلات الملكية في أيامنا ـ كلها تكشف عن تداخل المفهوم الإثني (السلالي) والمفهوم (الطبقي). وواقع الأمة العربية هو واقع أمة كادحة مناضلة تتعرض لنوعين من الاستغلال والقسر والاضطهاد، داخلي وخارجي، وكلاهما مترابط، فالتحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي، يشكّل ظاهرة بارزة، بل أبرز الظواهر والتحديات في الحياة العربية المعاصرة.

في حين يشكّل كل طرف من أطراف هذا التحالف واقع طبقة متسلّطة، أو طائفة متسلطة، أو أسر حاكمة متسلطة.

وإذا كان الترابط النضالي بين مفهوم الأمة ومفهوم الجماهير الكادحة في الوطن العربي يؤثر في الوجه التقدمي والتحرري للمسألة القومية، فإن الترابط بين الامبريالية والصهيونية والرجعية، إنما يؤثر في تحالف الايديولوجيات العنصرية والمصالح الطبقية المعادية لجميع مصالح الشعوب، وبخاصة الشعب العربي والشعوب التي تجعلها الامبريالية والصهيونية تصطدم اصطداماً غير شرعي وغير عادل بخط النهضة العربية المعاصرة.

ـ ١١ ـ

إن المشكلة الكبرى التي تواجهها المسألة القومية على الصعيد العربي ليست هي مشكلة الأمة والطبقة لأن المفهوم القومي المستند إلى تحليل علمي للواقع الطبقي في الوطن العربي، لا بد أن يؤكد الصلة بين مفهوم «الأمة العربية» و «الطبقات المسحوقة» و «الجماهير الكادحة»، وأن يكتشف حقيقة كون المفهوم القومي قد تشكّل عند العرب قبل نشوء الطبقة البرجوازية، وأن القومية العربية هي قومية تحررية اشتراكية.

---

(١٧) المصدر نفسه.

فالمشكلة الكبرى هي التي تتعلق بالتناقض الأساسي الأكبر في الواقع العربي، الذي يكاد يجمع التناقضات الأخرى ويوحدها، وهو تناقض التجزئة، أي التناقض بين «القومي الوحدوي» وبين «القطري الانفصالي»، لأن هذا التناقض يشكّل المعيار الأهم للحكم على عملية المفاهيم المطروحة وثوريتها. فالمنظار القومي الوحدوي يشكّل في ظروف التحدي المصيري الراهنة للأمة العربية، المنظار العلمي الثوري الوحيد المعبّر عن حاجات النضال العربي المعاصر. فأبسط حاجات الدفاع عن المصير تتطلبه وتفرضه، وبه وحده تأخذ الاشتراكية والديمقراطية معناهما العلمي والثوري. وإذا كان المضمون التحرري والتقدمي للمنظار القومي الوحدوي يتسع لاستيعاب الخصوصيات القطرية ويغتني بتعددها ويستمد خصوبته وحيويته من تفاعلها الايجابي، فإنه يصطدم بها، عندما تتحول الخصوصية إلى خصائص وعندما يتحوّل القطر إلى كيان مطلق منعزل، أي عندما يتحوّل الجزء إلى كل، وعندما تتوالد العزلة والكيانات، ويصبح الجزء أجزاء متناقضة متناحرة، فتأخذ التجزئة شكل تفتيت قومي واجتماعي وثقافي. وتلك هي الحلقة المركزية التي تركّز عليها المخططات الامبريالية والصهيونية من أجل تعميم الأوضاع المصطنعة والسلبية وقطع الطريق على طريق الوحدة، طريق الديمقراطية والاشتراكية.

إن المنظار الوحدوي العلمي الثوري يتوجه نحو الجماهير الواسعة ولا ينحصر في الأطر السياسية والاجتماعية والثقافية التي رسمتها المرحلة الاستعمارية ومراحل التخلف، والتي تغذيها المخططات الامبريالية والصهيونية.

وهو بحكم توجهه نحو الجماهير الواسعة، إنما يعبّر عن مصلحة العدد الأكبر، أي الطبقات المستغلَّة الكادحة المناضلة. فهي وحدها دون جميع القوى الأخرى ليست لها مصالح ضمن اطار التجزئة. فهو إذن منظار اشتراكي.

كما أن المنظار الوحدوي العلمي الثوري منظار ديمقراطي لأن الممارسة الديمقراطية جزء رئيس من مسيرته نحو إحداث التغييرات العميقة في البنية الاجتماعية، ونحو خلق الانسان العربي والأجيال العربية المؤمنة بأهداف النهضة العربية.

لذلك، فإن جدل الوحدة والانفصال، جدل القومي والقطري يتضمن جدل الأمة والطبقات والطوائف والفئات المستفيدة من التجزئة. فالرجعية هي دوماً إلى صف التجزئة، ووحدويتها زائفة وكاذبة.

وعبثاً نفتش عن مشاريع وحدوية ثابتة ونامية خارج اطار النضال الجماهيري المنطلق من فكرة الوحدة ومن التنظيم الوحدوي ومن الاستراتيجيا الوحدوية. بيد أن جدل القومي والقطري الذي يتضمن جدل الأمة والطبقة، يتطلب حرصاً دائماً على التمييز بين القطرية الانفصالية التي ترفض الوحدة أو التي تقدم مصالح القطر على مصالح الأمة، وبين القطرية التي تأخذ شكل قومية واقعية مستوعبة خصوصيات الأقطار، دون أن تكون واقعيتها على حساب ثوريتها.

إن المنظور القومي العلمي هو منظور ديمقراطي، إلا أنه في الوقت نفسه منظور ثوري، فالديمقراطية بالنسبة إليه هي شرط تحقق الوحدة على أسس صلبة، أي أسس تلبي حاجات الجماهير في نضالها القومي الاشتراكي.

إن هذا المنظور إلى المسألة القومية والخط السياسي الذي يمثّله والذي يضم كل فصائل الثورة العربية، يتعرّض إلى أقسى وأشرس المعارك الضارية من قِبل التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي، لأنه يحمل معه سر انبعاث الأمة وسر فناء أعدائها.

إن الأمة العربية في طور يقظة متصاعدة، وهي تبني ثورتها من خلال المعارك المتصاعدة مع أعداء التقدم البشري وأعداء الشعوب، مجتمعين في حلف واحد، حلف الامبريالية والصهيونية والرجعية، لذلك، فإن المسألة القومية هي مسألة الثورة العربية.

إن في المرحلة التاريخية التي تمر بها الانسانية متغيرات كثيرة، لأن طبيعة الصراع المتسارع والمتزايد الشدّة والعمق بين نهضات الشعوب الحديثة وبين القوى الامبريالية والصهيونية، لا بد أن تُدخل عوامل وظروفاً جديدة على هذا الصراع.

ولا بد أن تؤخذ هذه المتغيرات دوماً بعين الاعتبار، لكي تُوظَّف لمصلحة الثورة العربية، ولتعميق المنظور العلمي للوحدة العربية وللديمقراطية وللاشتراكية، لا لكي تمتص المتغيرات لروح الثورة وتقضي على فرص المستقبل الحقيقية.

إن المسألة القومية في الوطن العربي تجتاز اليوم امتحانها الكبير لأنها تشهد تحوّلاً جذرياً في المسيرة القومية ككل وفي الواقع الطبقي، يلتقي مع التحوّل الذي تمرّ به القضية العربية على صعيد عالمي دولي.

إنها ولادة جديدة يفرضها جدل المرحلة الراهنة من الصراع بين الأمة وبين القوى التي تخطط في كل مرحلة من مراحل النهضة، وتعمل عبثاً على خنق الشيء الجديد الذي لا بد أن يولد فيها، فالمسألة القومية هي مسألة الانبعاث العربي المعاصر.